الرسالة المخلصية

السنة العاشرة — ١٩٤٣ — ايلول - كانون الاول

العددان ٩ - ١٢ — سبتمبر دسمبر

رسالة التعليم الثانوي

تجود علينا المدارس في كل صيف ، مع جود الارض بالسنابل الناضجة المغذية ، بمئات من حاملي الشهادات ومن « المنتهين » الذين يخوضون بعد المدرسة ، وهم في مقتبل الشباب ، ميدان الحياة الواسع ، او ينتقلون الى مدارس جديدة تلقنهم التعليم العالي لينصرفوا فيما بعد الى ما ندعوه « المهن الحرة » .

فهل اتت لنا غزارة العلم هذه بالسعد والرقي ، وهل كان العلم ليجود على اصحابه اولاً ثم على البلاد باسرها برفاهية العيش وتوسيع الآفاق الفكرية والمادية وتكميل العقول وغنى الحياة في كل مظاهرها ؟ ام بالحري اوصلنا العلم الى ازمة اخلاقية وروحية فضلًا عن الازمة المادية التي يختبط فيها كثير من الشباب المتعلم بل كان بعضهم قبل هذه الحرب يكاد يجتاز عتبة الفقر و« القلة » والفاقة ؟

لا شك ان العلم يكمّل ، فالانسان بعقله اولاً ، وكمال العقل المعرفة والعلم . فكلما زاد العلم زاد بحد ذاته الكمال الانساني ، وكلما كثر في امة عدد المتعلمين وجب مبدئياً ان يزيد كمالها . فلسنا اذن ممن يندِّدون بالعلم وينوحون من فرط عدد المتعلمين . غير انه يوجد بكل اسف علم ناقص يضلل العقل بدل ان يقوّمه ويدرّجه الى الكمال ، ويشوّه شخصية الانسان بدل ان يجمّلها ، كما انه يوجد ايضاً علم ضالّ فاسد يطمس الحقيقة بدل ان يوضحها .

فيمكن ان يكون العلم اذن مهلكة للافراد والجماعات ، كما يمكن ان يكون واسطة للرقي والكمال . فلكي يكون مكملاً للعقل ، يجب ان يستوفي بعض الشروط الجوهرية الاساسية . وعلى المعاهد الثانوية بنوع خاص ان توجه التعليم ذاك الاتجاه الصحيح الذي يأتي على صاحبه وعلى المجتمع الذي ينمو فيه بالفائدة والخير . لذلك كان عمل المدارس الثانوية « بمثابة » رسالة عالية نبيلة موضوعها تكميل نفس الطالب وتوجيه عقله وروحه الاتجاه الصحيح في الحياة. فاذا اقتصرت مهمة التعليم على حشو ادمغة الطلاب بمختلف العلوم او اللغات واهملت تهذيب الروح واعداد الشاب لخوض معركة الحياة مسلحاً بمبادىء راسخة وكافية وصحيحة ، اصبحت رسالتها إضلالا وتعليمها نقصاً .

يمكن ان نلخص مهمة المعاهد العلمية ، لاسيما الثانوية منها ، ونحدد الرسالة التي يجب ان تقوم بها نحو الافراد والمجموع بكلمة وجيزة هي : اعداد الرجال . ان كلمة « رجل » تعني في كل اللغات نوعاً من الكمال . فالرجل هو الذي يُتمم في ذاته برنامج او مثال الانسان الكامل او على الاقل المتكامل او المتجه نحو الكمال. وعندنا ان اعداد الرجولة يقوم بامرين : تثقيف العقل وتربية الروح . لذلك وجب على التعليم الثانوي ان يصرف نفس العناية والاهتمام الى كلا هذين العنصرين الاساسيين، لا ان يقتصر على العنصر الاول، هذا اذا جاز ان نعتبر تلقين مختلف الدروس وحده اهلاً لان يدعى تثقيفاً . فللعنصرين اذن ذات الاهمية والضرورة ، واليهما على السواء يجب ان يرمي التعليم .

***

اولاً : تثقيف العقل . — ان اموراً كثيرة ومتفرقة ومختلفة يقتضي حصولها لانتاج ثقافة عقلية كاملة او على الاقل مرضية . والكلام في الموضوع واسع النطاق جداً وقد ألّف فيه الكتّاب في مختلف اللغات مجلدات ضخمة . فمن الصعب اذن ان نفيه حقه باسطر وجيزة او ببضعة صفحات . بيد انه يتراءى لنا ان العناصر الرئيسية التي ينتج من اتحادها ثقافة عقلية جيدة وكافية ومفيدة هي اولاً سعة المعارف ثم اقتناء ملكة التفكير ثم صحته او صوابه .

فلا بد اولاً من سعة المعارف. مأثور القول ان العقل هو في البدء، في الطفولة، نظير ارض جرداء لا عشبة فيها انما هي مستعدة لانتاج كل بذار تلقيه في طيات اثلامها. او هو نظير صحيفة بيضاء، او كما قال الفلاسفة القدماء هو نظير الطاولة القحطاء التي ليس عليها شيء البتة بل هي مستعدة لقبول كل شيء. كل هذه التعابير مجازية او تشابيه للدلالة على ان الافكار التي تزين العقل وتنمو مع نمو السنّ، لا تولد معنا كما زعم بعض المسفسطين، بل هي مكتسبة تُحصَّل رويداً رويداً كلما وقعت اولاً الحواس على مختلف المواضيع ثم كلما عمل الاختمار الفكري الباطني بعد اقتناء الكثير من المعارف. فكل ما نلقيه من المعلومات في نفس الطفل ثم في نفس الصبي فالشاب، يلاقي ارضاً طيبة يتأصل فيها وينمو ويخصب.

ان برامج المعاهد العصرية هي من هذا القبيل اكمل من كل ما سبقها في سالف الازمان. فهي تجمع منذ البدء كل ما يمكن العقل ان يجده من مختلف العلوم. فاللغات والتاريخ والجغرافية وعلم النبات والحيوان وطبقات الارض والطبيعيات والكيمياء والفلك والحساب، حتى مبادىء الفلسفة والطب والشرع الاولية تدخل تدريجياً في البرامج وتتوسع كلما تقدمت الصفوف. فلا تقصير من هذه الجهة في برامج التعليم العصري، بل ربما يوجد بعض الافراط اذ يثقّل احياناً الحمل على عقل التلميذ الغير المكتمل النمو فينوء تحت الثقل ولا يعود يستطيع استيعاب كل مايلقّنه. فلا بد من الاعتدال اذن وتدريج البرنامج وتناسبه مع قوة العقل المتنامية.

على ان تحصيل مختلف المعلومات في كل حقول العلم ليس بالامر الاكثر اهمية في تثقيف العقل. فاذا عرف الطالب او الرجل اموراً شتى في كل شيء ولم يحصل على التعمق في الامور وعلى قوة التفكير والانتاج الفكري، كانت الثقافة سطحية وناقصة وزائفة، ويصبح العقل اذ ذاك نظير معرض تنسّق فيه التحف وهو جماد لا يستفيد من اثمنها ذرة، او نظير فسيفساء بديعة متقنة تضم اجمل الالوان الحجرية وتبقى مع ذلك مادة جامدة غشيمة لا قوة ذاتية فيها ولا حياة.

فاقتناء ملكة او عادة او قوة التفكير هي للثقافة اهم من سعة المعارف. وربما لا تخلو معاهدنا العصرية من بعض اللوم بل قل من كثيره في هذا الخصوص.

اسبر غور معارف «متخرج» او حامل بكالوريا تجدها احياناً كثيرة بل غالب الاحيان نظير قشرة خارجية او دهان براني خفيف يزول لدى ادنى حكّ . لذلك نلاحظ مع الاسف ان ازدياد عدد المتعلمين لا يزيد كثيراً روح الثقافة في البلاد . ان علماً سطحياً كهذا هو مدعاة للدمار احرى مما هو للعمران وهو كثيراً ما يجلب على صاحبه وعلى المجتمع جسيم الاضرار بدل الفائدة المرتجاة . لا يفيد العلم صاحبه الا اذا تشربه العقل وحوّله الى قوة تفكير .

فكم من فتياننا او فتياتنا يمكننا ان ندعوهم مفكرين ؟ بل قل لي اي شاب متعلم ، او فتاة « راقية » ، ينصرف الى مطالعة موضوع مهم او بحث فلسفي ، او يشتري كتاباً جدياً او يشترك بمجلة عميقة الابحاث؟ بل قل ايضاً كم منهم يستطيع ان يفهم او يدرك كامل معنى تلك المواضيع ؟ . . . او ليس التهافت على الملاهي والانصراف الى الالعاب والى المقامرة وسباق الخيل ، والاسراف في شرب المسكرات وما اشبه . . . اليس ذلك كله دليلاً واضحاً على ان قوة التفكير تضاءلت في الكثيرين ! او ليس ذلك مهرباً للانسان من افكاره ومن الانفراد الداخلي معها ؟ . . .

لا يجوز ان نقيس غنى الأمة الروحي بعدد المتعلمين فيها بل فقط بعدد المفكرين . فالنضوج العقلي ليس نتيجة سعة العلم فقط بل هو اولياً نتيجة التفكير . فاذا نقص التفكير فُقد النضوج وبالتالي فقدت الرجولة . فيجب اذن ان يهتم المعلمون ان يعوّدوا بنوع خاص تلامذتهم على التفكير . ويجب كذلك على التلميذ ان يروض نفسه منذ الصغر على اقتناء هذه الملكة الاساسية . كثيراً ما يتلقن التلامذة دروسهم نظير الببغاء فيعملون الذاكرة دون العقل ويحفظون امثولتهم «غيباً» دون الاهتمام بفهمها ، فلا تصير والحالة هذه جزءاً حيوياً منهم كما يصير الغذاء جزءاً من الجسم ويتحول الى حياة وقوة . وليس تهرّب التلامذة وتخوفهم من فروض الانشاء في المدرسة الا دليلاً اكيداً على تهرّبهم من اعمال الفكر ومن التعمق في المواضيع .

ان للمطالعة تأثيراً على نضوج الفكر وممارسة ملكة التفكير . على انه يجب ان يكون موضوع المطالعة قيّماً لا ان يقتصر على القصص او التفاهات المبتذلة . ان المطالعة نوع من معاشرة الكاتب الذي نقرأ مؤلفه . والكتّاب هم عادة رجال التفكير

بل قـادة الافكار والآراء . فعاشرتهم هي اذن من افعل الوسائط للتمرن على التفكير واقتناء سهولته وملكته .

غير ان التثقيف العقلي لا يكتمل بمـا ذكرنا من سعة المعارف واقتناء ملكة التفكير . فلا بد لكماله ، او على الاقل لتوجيهه الى الكمال ، من ان يكون التفكير صحيحاً لا ضالا او معوجاً . قد لا يضر الجهل بصاحبه وبالغير . اما الضلال فضرره محتم ، لانه يظهر الامور على غير مـا هي فاذا صور الشر خيراً والبطل حقاً تمسك الانسان بهما معتقداً انه على هدى، وهيهات اذ ذاك ان يهتدي ! . . .

ويفترض التفكير الصحيح امرين : مبـادىء قويمة وحكماً مصيباً . المبادىء القويمة اولا لان الحياة مبادىء وعمل . والعمل يتبع المبدأ كما تتبع النتيجة السبب . العقل فينا هو القائد ، كما ان الغريزة العمياء في الحيوان هي التي تقوده . العقل هو العين التي ترشد في الطريق . فاذا اغمضت عينيك تعثر في مشيك ، واذا ارتك العين الاشياء على غير حقيقتها كالسائل جماداً والهوة طريقاً سهلة ، فانك تسلك فيهما فتغرق وتسقط . كذلك العقل اذا اراك الامور على غير حقيقتها اورطك في العثرات . المبدأ هو النور الذي يرشد العقل « فاذا كان النور الذي فيك ظلاماً، فالظلام كيف يكون ؟ »

لذلك تحتم ان يلقن التلميذ في المدرسة، لا سيما في الصفوف العالية حيث يكون اكتمل عقله ، المبادىء الصحيحة فيما يتعلق بكل امور الحيـاة . وتحتم عليه هو ان يجتهد في اقتناء تلك المبادىء بشغله الشخصي ومطالعاته وملاحظاته وجهده . لا يجوز للطالب المتقدم في دروسه او الذي اوشك ان ينهيهـا ، ان يعرض عن البحث عن الحقائق العمومية الجوهرية وان يمحصها ليتمسك بالسليم منها . والا فليعلم ان ثقـافته ناقصة مبتورة وان شهاداته لا تفيده في المستقبل شيئاً . واذا كان لدرس الفلسفة اهمية فضرورتها هنا اشد منها في اي شيء آخر لان الفلسفة تدرس الامور بمبادئها الاخيرة الاساسية وتتقصّى الحقيقة والجوهر في كل شيء . على انه يجب ان يُلقن الطلّاب الفلسفة الصحيحة السليمة والاّ اصبح لهم الدواء نفسه سمّاً قتالا . ومن منا يجهل ان كل الاضاليل الفكرية العصرية وما ينتج ونتج عنها من ويلات ادبية واجتماعية وخراب بلاد باسرها واضعاف دول وشعوب ، انمـا هي نتيجة الفلسفة الضالة والمضلة ، لا سيما من بعض

الفلاسفة الذين يُعدّون اليوم كأعلام العقل البشري ، نظير كانت وهيجيل وماركس وشوبنهاوير وكونت وسواهم كثيرين ؟ لا نقصد هنا تحقير هؤلآء الفلاسفة الافذاذ . ولكننا نعتبر ان تأليههم في الفلسفة واتباع آرائهم في كل شيء ، لا سيما في المبادىء العامة والحقائق الاولية ، ضلال مبين واصل الدمار الفكري والعملي في الفرد والمجتمع ومن اين ياتي شبابنا بتلك المبادىء الغريبة التي تدّعي ان اللذة في الحياة هي كل شيء وان الحرية مطلقة من كل قيد وسلطان ، الا مما طالعوه من الفلاسفة العصريين .

ويتبع صحة المبادىء كنتيجة طبيعية صواب الرأي واصالته وهو العنصر الثاني في صحة التفكير وربما هو اهم شيء في الحياة العقلية والثقافة . يقوم صواب الرأي بان نحكم على الامور كما هي ، وان نميز في احكامنا الحق من البطل والغث من السمين والمضر من المفيد . ويفترض ذلك ان لا ينقاد الانسان في احكامه الى هوى نفساني او مصلحة شخصية او نزعة حزبية او حب او بغض ، بل ان يرى الامور كما هي بحد ذاتها . وهذا نفسه يفترض تجرداً عن وجهة النظر الشخصية الانانية ، لاننا معرّضون عادة ان نحكم على الاشيآء كما نراها نحن لا كما هي ، وعلى الناس بقياسهم على نفوسنا وافكارنا كأننا قاعدة او « قالب » يجب ان يكون على مثاله الجميع . ويقتضي اخيراً لصحة او صواب الرأي سعة النظر وسعة الاطلاع . يحكم الانسان بما يعرف ، فاذا كان محدود النظر ، محصور الدائرة ، ضيق الفكر ، يتعرض الى ان يكون مقياس احكامه ضيقاً فلا ينطبق على الامور والحقائق . ولا بد لذلك من بعض الاتضاع اي الاقرار بان عقلنا محدود ومعارفنا محدودة فلا يجوز ان نجعلها الحكم المعصوم في كل شيء . ويلزمنا التحفظ الشديد من الشطط في الاحكام ، لا سيما على الناس وتصرفهم ومبادئهم ، وعلى الحقائق وخصوصاً الاساسية منها .

تقول في مدح فلان انه «صاحب رأي» او مشورة . ولعمري ان ذلك له اسنى مديح لان الرأي المصيب هو اثمن شيء في العقل والعقل هو الانسان . وتقول عن فلان ان « فكره اعوج » اي انه يرى الامور بغير حقيقتها ويختلف نظره فيها عن نظر باقي الناس ، وبكلمة اخرى ان احكامه غير مصيبة . فالحكم والراي اذن هو نفس الفكر . وماذا تنفع الانسان علومه كلها اذا كان « فكره اعوج » ؟ بل قل انها تضره اكبر ضرر لانها

تجعله يعتدّ بسبب علمه ان فكره مصيب، وهيهات اذ ذاك ان تتمكن من تقويم اعوجاجه !

ان المتخرجين من المعاهد الثانوية هم قادة الافكار ، ولهم بالتالي اكبر تاثير على المجتمع ، لاسيما على الشعب البسيط . فيهمّ اذن جداً ان تكون مبادئهم صحيحة وآراؤهم صائبة ، والاّ اقتادوا الشعب الى الخراب بدل العمران .

هذا هو العمل الاول في رسالة التعليم الثانوي ، اي تثقيف العقل . وهو كما رايت يتكوّن من عناصر مختلفة تتضامن كلها لانتاج العقل الكامل السليم . ولكن هذه الرسالة لا تقف عند هذا الحد ، لانها يجب ان تشمل الانسان العاقل كله ، والانسان ليس عقلاً مجرداً ، بل هو ايضاً ارادة وروح حيّ عامل . فرسالة التعليم يجب اذن ان تمتد الى تربية الارادة والروح .

التربية — قلنا ان رسالة التعليم العامة هي انشآء الرجال ، والرجل الكامل هو الكامل بعقله وارادته لا بالعقل وحده . ولا تكفي المعرفة في الحياة ، فالرجل هو خصوصاً رجل العمل لا رجل المعرفة . واعداد الرجل للعمل يقوم بنوع خاص بالتربية . فمن واجب المعاهد العلمية ان لا تهمل هذا العنصر الجوهري في حياة رجال الغد . بل واجبها في ذلك الزم نوعاً ما من واجب الاهل ، لان الولد قلما يبقى في البيت ، تحت نظر وارشاد والديه ، بل يقضي كل اوقاته تقريباً في المدرسة .

تقوم التربية خصوصاً بامرين : ان يفهم الشاب معنى الحياة الحقيقي وما تقتضيه من واجبات وما تلقي من مسؤوليات ، وان تُنمى في النفس الصفات الادبية والمؤهلات للقيام بتلك الواجبات والمسؤوليات .

معنى الحياة الحقيقي ! . . . كم تجد من شبان العصر يدركونه او يفتكرون به ؟ يعتبر كثيرون ان الحياة « طابق » لهو يطول امده او يقصر بحسب عدد السنين ، والحكيم من تمتع فيها باكثر ما يمكن من البسط والملاهي . وفي نظر آخرين هي بمثابة فرصة تنعم ولذة ، فكل ما لم يكن لذة لم يكن حياة . ويا ليتهم يعرفون اللذة العقلية والروحية ، بل انما هم يقتصرون من اللذة على ما يتعلق بالحواس وبجزئنا الحيواني لا الروحاني : « لنأكل ونشرب وننعم فغداً نموت ! » هذا برنامج حياة هؤلآء . . . .

ويظن غيرهم انهم احكم من اولئك اذ يعتبرون ان الحياة هي الحب : «الحياة

الحب والحب الحياة » . . . ولا يعنون ولا يفهمون بالحب تلك العاطفة السامية التي تدفع الى عمل الخير وتخفيف آلام البشرية والتضحية الذاتية، بل يقصدون به الميل الجنسي وحده ، محرراً من كل قيد ونظام وشريعة ، فلا قدسية زواج ولا عاطفة شرف ولا رادع ضمير ولا واجب عائلي يجوز في اعتبارهم ان يحول دون الحب ؛ فيقلبون ميلهم مع كل ريح ، و « ينقّلون فؤادهم في الهوى » مع كل بادرة ، ولا يروّضون هواهم بل يهيمون على ما تشآء الغريزة المادية الغاشمة مضحّين الروح للجسد والعقل المادة !

ويعتبر آخرون ان الحياة رواية يمثل كل فيها دوره جدّياً كان او هزلياً ، ثم يغيب عن المرسح ليخلي المكان لسواه . وغيرهم يضع جوهر الحياة في اقتنآء المال والسعي الى الغنى ، فالكسب عندهم هو القاعدة العظمى ، وفي سبيل المال يجب ان يضحى كل شيء ، حتى الضمير والشرف والعدل والرحمة ، فكسب المال يبرر كل واسطة . ويقرب من هؤلآء من لا يرى في الحياة الا العظمة والرفعة، فيضحي في سبيل ذلك كل شيء ، ماديًا كان او روحياً . — وبعكس هؤلآء جميعاً نرى البعض يعتبرون الحياة ثقلًا موضوعاً على كاهل ابن آدم دون ارادته، وسلسلة شقآء لا مهرب منه

ويطول بنا المقام لو أوردنا كل ما هنالك من آرآء زائغة ونظريات غريبة فاسدة في معنى الحياة وكنهها وكيفية استعمالها . والشطط الاساسي في ذلك كله قصر الحياة على حياة الجسد ، واهمال الجزء الاعلى فينا وهو العقل والروح ، والاعتبار ان هذين اليومين اللذين نقضيهما على الارض هما كل شيء لنا ، فلا نفس ولا خلود ، ولا دينونة ولا حساب ، بل تفنى الروح مع الجسد ، كفنآء روح الحيوان او النبات فيجب والحالة تلك ان ننعم ما استطعنا في « ليلة العمر » القصيرة ! . . .

لا نريد ان ندخل بابحاث جدلية في معنى الحياة ، فهنالك آرآء ونظريات فلسفية ودينية متشعبة ونحن لا يهمنا الآن من الموضوع الا وجهته العملية . فمن هذه الوجهة العملية نقول ان للحياة معنى وقيمة عظيمين فهي اكبر منة نمنحها ولذلك ترانا به متعلقين كأثمن شيء لدينا . ان الحياة قد اعطيت لنا لنعمل الخير ، مع نفوسنا اولاً ثم مع الغير . فخير نفوسنا يقوم بان نكمل وجودنا المادي والعقلي باكثر ما يمكن . فمن الوجهة المادية نلتزم ان نهتم بصحتنا ونمونا والبحث عن اسباب الرفاهية والراحة واكتساب الغنى الذي

هو واسطة الى ذلك جميعه . يظن بعض المتطرفين ان الاهتمام بذلك ممقوت من الخالق . بل نقول بالعكس انه واجب موضوع علينا من الخالق نفسه . علينا واجب عظيم مقدس ان نهتم بحياتنا المادية ، على ان لا يتجاوز هذا الاهتمام حدوده ويعيق عن الاهتمام بالروح . اما من الوجهة العقلية والروحية فنلتزم ان نكمل العقل ما استطعنا بالعلوم وان ننصرف الى طلب الخيرات المعنوية واللذات العقلية الطبيعية كالشعر والادب والموسيقى وما اشبه من الفنون . وعندنا خير الصداقة والمحادثة والاجتماع بالناس وترويح الفكر وما الى ذلك مما لا يحده عدد او حد . — ويوجد فوق ذلك جميعه الخير الديني اي علاقاتنا مع الخالق ومعرفته ومحبته . وهي لعمري ميزة شريفة خصنا بها الله دون كل ما هو الينا من حي وجماد . ان الكمال الروحي لا يتم بدون الدين فيخطأ اذن بفظاعة من يعتبر الدين من المهملات ولا يعيره في الحياة ادنى اهتمام . بل نقول ان الحياة لا معنى لها اذا صرف النظر عن علاقاتنا بالخالق ومصيرنا اليه بعد الموت .

ان الانسان الكامل بعنصريه المادي والروحي وبدينه هو تحفة وآية بديعة من آيات الطبيعة ، وقد دعا الاقدمون الانسان « العالم الصغير » . فمعنى الحياة اذن عظيم اذا عرفنا انها السعي الى هذا الكمال .

اما عمل الخير مع الغير فهو ايضاً من معنى الحياة الجوهري لان الانسان « حيوان اجتماعي » كما حدده بعضهم ، خلق ليعيش مع الناس امثاله فوجب والحالة هذه ان يريد ويعمل الخير مع بني جنسه كما يريده ويعمله لنفسه . ولعمري لو اقتصر معنى الحياة على هذه الوجهة فقط اي عمل الخير للبشرية لكان ذلك كافيا ان يجعلها شريفة سامية .

من ذلك كله ينتج ان على كل فرد واجباً ومسؤولية نحو الحياة . واجبا نحو نفسه اولاً بالسعي الى كماله الشخصي من كل اوجهه ، وواجبا نحو الغير بعمل الخير حواليه ما استطاع . الواجب والمسؤولية ! ما اقل من يهتم بهما من شبان او رجال العصر بل قل ما اقل من يفتكر بوجودهما . فرسالة التعليم النبيلة في التربية هي ان تفهم الطلاب الواجب والمسؤولية في الحياة . كل منا مسؤول عن نفسه اولاً ثم عن المجتمع بحسب مكانته فيه . مسؤول نحو ذويه ، فمسؤول ان يؤسس عائلة ويربي بنين كما رباه والداه او اذا لم يتزوج فهو مسؤول نحو البشرية كلها كانها عائلته الخاصة . ان

العزوبة لتوسيع حقل عمل الخير وعدم حصر النشاط في افراد عائلة محدودة ، لأمر عظيم ومقدس وشريف . ولكن العزوبة الانانية هرباً من مسؤولية عائلة هي جبن وخيانة نحو البشرية . — ثم يتوسع نطاق المسؤولية من العائلة الى الوطن والى المجتمع البشري كله . فكل واحد مسؤول ان يزيد في ثروة البشرية الروحية بعمل الخير .

***

فاذا فهم الطالب ، فتى الغد ، معنى اهمية الواجب والمسؤولية ، يبقى على المربي ان يغرس وينمي في نفسه الصفات الروحية اللازمة لمجابهة الحياة وللقيام بالمسؤولية والواجب . قلنا ان الموضوع واسع جداً ، ولو قصدنا اشباعه لوجب له مجلد كامل . فنقتصر ، في ذكر الصفات الواجبة للقيام بذلك على ما نعتبره اساسيا وعمومياً فيها وبمثابة اصل يتفرع منه كل ما بقي . وعندنا ان الصفات الاساسية في هذا الموضوع هي القوة والشجاعة ، ثم روح التضحية ، ثم حب عمل الخير والتفاني في الخدمة .

بما ان الحياة تفرض واجبات وتلقي مسؤوليات عظيمة ، وجب للقيام بها قوة عزيمة وشجاعة قلب . كم من القوة والشجاعة يلزم للجهاد والفوز ! اذا قامت صعوبة بازاء قصد المرء او اذا فشل في امر ولم يكن شجاعاً تراجع عن السعي والجد وبقي يزحف في طبقات الحياة السفلى وان يرتفع ابداً الى المعالي . يتوهم الكثيرون ان النجاح هو كل شيء فاذا فشلوا مرة قنطوا ويئسوا . ونرى بكل اسف ان السواد الاعظم من الناس لا ينظر بعين الاعتبار الا للنجاح والنتيجة . وقد قال احدهم لولده بهذا المعنى : « يا بنيَّ امضِ في الحياة . فاذا نجحت أُعجب الناس بك ، واذا ترددت انتظروك ، واذا سقطت ازدروك ». يسير الكثيرون على هذا المبدأ الفاسد والشائع فيقيسون الآخرين ونفوسهم على مقدار النجاح لا على قوة الجد والسعي .

اما التضحية فهي «بعبع» الكثيرين . على انها ليست الا مظهراً للشجاعة والرجولة . التضحية هي غذاء القيام بالواجب . من طبعنا ان نبحث عن كل ما فيه راحتنا ورخاؤنا . ولكن ننسى ان هذا الطبع هو في الطبيعة الساقطة لا في الكاملة ، ومن الواجب المحتم ان نسعى الى الكمال . آفة البشرية الانانية . والانانية لا تغلب الا بالتضحية . اذا تمادى الانسان مع انانيته ولم يضحِّ بامیال الفساد والظلم واللذة المحرمة

بل بالخير الشخصي اذا كان فيه ضرر للغير، اصبح الانسان للانسان ذئباً خاطفاً واصبح المجتمع عبارة عن جماعة ذئاب. يوصي القديس بولس المؤمنين في احدى رسائله ان « لا يطلب الانسان ما هو لنفسه بل ما هو لغيره » . هذه تضحية الانانية وهذا اساس كمال المجتمع.

والصفة الثالثة التي يجب ان تنمى وتربى في نفس الطالب هي حب عمل الخير . يمر كثيرون في هذه الدنيا مرور الماء على الحجر او السفينة في الماء لا تترك اثراً . ينطفئ ذكرهم مع انطفاء سراج الحياة بل لا ذكر لهم حتى في حياتهم، لان الانسان لا يذكر الا بالخير الذي يعمل وهم لم يدركوا لعمل الخير معنى . فمن لم يعمل ولو ذرة على تخفيف شقاء البشرية ليس من البشرية !

ان حقل العمل واسع جداً وليس المهم ان نشتغل فيه كله، بل ان نساهم بالشغل ولو في زاوية صغيرة منه . فهنالك افعال الرحمة الجسدية من مساعدة الفقراء والتعاون في الجمعيات على تخفيف عوز المحتاجين وزيارة المرضى وخدمتهم، وهنالك الخير المعنوي الروحي من تخفيف آلام النفس كالحزن والقنوط ومن التشجيع والتعاون في الصداقة المتينة والوفاء. ومن القاء السلام بين الافراد والعيال والمجتمع الى ما هنالك. فاذا فهم الشاب ان عليه واجباً ان يعمل الخير في حقل من الحقول الواسعة، اذا اقتنع بذلك وفهم وجوب السعي اليه كانت تربيته متينة والا اعتبره كأنه لا يوجد ! . . .

هذا قليل من الكثير في رسالة التعليم التي تلخص بكلمة اعداد الرجال ، سواء كان ذلك بتثقيف العقل وتكميله بسعة المعارف واقتناء ملكة التفكير والتفكير الصحيح، او بتهذيب الارادة والروح، بافهام معنى الحياة والواجب والمسؤولية، وتهيئة النفس للقيام بذلك باقتناء الصفات اللازمة كالشجاعة والتضحية والانصباب على عمل الخير . انها لعمري رسالة عالية سامية ويا سعد المجتمع اذا قام بها اربابها حق القيام. فبذلك وحده تصبح المعاهد مثبت او مشتل الرجال ويصبح الطلاب رجال الغد .

الخوري غريغوريوس الحايك ب م

هل نحن اسعد من اسلافنا

محاضرة القيت في النادي الكاثوليكي في حيفا في ٢٠ ايار سنة ١٩٤٣

كثيراً ما تسمعون ونسمع احاديث شبابنا وشاباتنا ، احاديث رجالنا وسيداتنا حتى الناضجين منهم سناً وتفكيراً ، يأتون فيها على ذكر آبائهم واجدادهم ومن سبق هؤلاء من السلف الصالح بالفاظ تسيل منها معاني الهزء والسخرية ، ويقابلون بين حياة الامس وحياة اليوم وهم سكارى بخمرة الزهو والكبرياء ، يتبجحون « بفرنجتهم » وبمظاهر الحضارة والمدنية الزائفة !! . . . فاحاديثهم المتكررة وزهوهم الباطل ، وزعمهم المعكوس اوحى لي السؤال التالي :

« هل نحن يا ترى اسعد حالا وانعم بالا من اولئك الاسلاف ؟ »

او هل نحن مع ما بلغناه من الحضارة نعيش في جو فكري اسمى وانقى واعلى من تلك الاجواء التي حلقوا في قبابها ردحاً من الزمن ؟ وهل حياتنا الاجتماعية اقرب الى المُثُل العليا من حياتهم ، وهل ما نتمتع به من وسائط الرفاهية ووسائل التقدم والعمران واسباب الراحة ادت الى رفع مستوانا الادبي وحسنت جوهر سيرنا — هذا اذا نظرنا الى الجوهر دون المادة — وجعلت من مجموعنا شكلاً خلاباً نقول لدى الوقوف عنده : قد بلغنا درجة عالية من الكمال التفكيري والعقلي والمادي ؟

اسئلة نحتاج الى كثير من الجرأة للاجابة عليها ، ونحتاج ان نتغلغل في دوائر المجتمع لنقف عن كثب على تلك الحقائق . ونحتاج ان نرجع بافكارنا الى اعوام خلت ونقف هنيهة على رتاج ابواب الماضي .

اجل ايها السادة ، نحتاج الى هذا كله لنعرف امراضنا الاجتماعية الفتاكة التي عملت على انهاك هذا الجسم فقتلت خلاياه الحية ، والعلة كما تعلمون ، اذا طال عليها الزمن ، استفحل شرها وعز شفاؤها ومهما غبطنا انفسنا بما نتمتع به من مظاهر المدنية ، ومهما فاخرنا بما جادت به قرائحنا ، وانتجته ادمغتنا ، وولده تفكيرنا من

مخترعات هي اشبه بالمعجزات ، الى ابتكارات سبقنا بها الاولين، الى اعمال ادهشنا بها بعضنا البعض ، الى مصنوعات يقف ازاءها التفكير البشري حائراً مشككاً انها صادرة من نتاجه الخصب ، الى علوم حاق بها الانسان ما سمحت له الاجواء الواسعة في التحليق ، الى فنون لم تتمثل بخاطر انسان ولم يحلم بها حالم . — اقول لا يسعنا ان ننظر اليها الا نظرة في طيها الاسف والخيبة والفشل ، ولا يسعنا ان نفتكر بها وما جرّت معهـا من ويلات الا ونذرف دمعة سخينة ونقول : « ليتنـا ابطأنا في سيرنا ! . . . » — ولماذا ؟

انظروا، ايها السادة ، نظرة عامة فنغتبط قليلًا ثم نعود لنرتدي ثوباً من الكآبة طويلًا. انظروا ما بلغنا من التقدم وما اجتزنا من اشواط واسعة في عالم الطب والمحاماة والهندسة والعلوم العالية والفنون الجميلة : لكل بيت طبيب ، وفي كل منعطف عيادة وفي كل شارع عشرات وعشرات اللوحات تحمل اسماء الاطباء ودرجة اختصاصهم . ما اسعدنا حينما نفتكر بالعدد! ولكن ما اسعد اسلافنا الذين لم ينعموا بهذه الكثرة الساحقة بل كانت لهم اجسامهم الصحيحة وبنيتهم العامرة ! فلا السهر الطويل هنا وهناك يضنيها، ولا ما تحمله المدنية الفاسدة من جراثيم الامراض يضعفها،ولا الاسراف في الاجهاد للتمتع بالكماليات العصرية ينخر فيها ! هاتوا لنا اجساماً صحيحة كاجسامهم لم تتسرب اليها جراثيم الامراض ، ومحيطاً نظيفاً عفيفاً كمحيطهم ، وخذوا منا هذه الجمهرة من الاطباء وآلاتهم الحديثة ، وما نحن وحقكم الا من الرابحين .

***

حولوا انظاركم ، ايها السادة ، نرَ مشهداً آخر : هناك مكتب لمحام عقاري ، وآخر لمحام قضائي ، وغيره للمحاكم المختلطة ، وغيره . . . وغيره ، أنّى نظرت وكيف اتجهت لا تقرأ الا « دكتور في الحقوق ، خريج جامعة كذا » . . . ولا يقع بصرك الا على من يسير مسرعاً ، يجر وراءه جمهوراً من التعساء الذين نكبتهم الايام ، عيونهم اليه شاخصة وقلوبهم به عالقة ، والى اين ؟ طبعاً الى الدوائر المختصة ، وكلنا يعرف النتيجة المؤلمة : اقوياء يسودون ، حقوق ضائعة ، المحرقة هي هي : القوة تسود والحق يهبط ، الضعفاء تتلاشى آمالهم ويخبو نجم حقهم وراء حجب من

الضمائر كثيفة !

ما اسعد اسلافنا وما اعدل ما كانت عليه احكامهم : قلوب بسيطة ومنطق صريح . فاذا وقع الخلاف وحصل التعدي واقترفت الجرائم ووقف الشجع الانساني مهولاً بيده ، فهناك ابو العائلة او رئيس القبيلة او الرئيس الديني ، فينقضي الخلاف في بضع ساعات ويرتفع قسطاس العدل عالياً . لا جلسات ولا مصارافات ، لا مرافعات ولا مدافعات ، ولا تأجيل جلسات للنظر في تلك المواد القانونية المطاطة القابلة للتحوير والتبديل . فالحق يسيطر ، والعدالة الانسانية تلفظ حكمها بعد ان يختلي المحكَّمون في زاوية الضمير ودائرة الوجدان هنيهة ، وما اعدل الاحكام الصادرة عن محكمة الضمير الحي والوجدان النقي ! !

***

ولنحول انظارنا الآن الى جهة اخرى . انظروا ايها السادة شوارع واسعة تربط بها الاحياء ارتباطاً فنياً ، لا ليّات ولا طيّات . فالطرز الحديث يقول والمهندس يرسم ويضع التصاميم . طرق لا اعوجاج فيها ، شوارع تخترق المدن ، متنزهات تخلب الالباب ، بنايات شامخة تتلألأ بانوار الكهرباء وتزدان بافخر الرياش ، مستوفية شروط الراحة والتسلية والتمتع . كيف لا والمهندسون منتشرون في كل مدينة وقرية وتكاد لا تخلو منهم بلد . وهل في الامر غرابة ومدارسنا تخرج الكثيرين منهم كل عام وتنفح بهم البلاد لتبدو مسحة الفن بارزة ؟ فما اسعدنا وقد زاد عدد هؤلاء عما تحتاج البلاد ! ولكن ما اسعد اسلافنا الذين حرموا هذه النعمة ، وليس عندهم من مسحة للفن الحديث ، ولا للهندسة ذكر في مجتمعاتهم ، ولاسمة لها على طرقهم المعوجة وبيوتهم المنخفضة ، انما كان المبدأ قوياً والسير مستقيما . فلا رياء ولا مواربة ، لا مداهنة ولا مجاملة . الصدق في التعبير والاخلاص في المعاملة شعارهم ، اذا قال احدهم جزم واذا وعد وفى . فان حرم الاسلاف من نعمة الفن الحديث ، فقد كان لهم فنهم الخاص به يتمتعون ولمثله نحن متحسرون ! السنا اذن بمعذورين اذا قلنا جهراً : خذوا شوارعنا المستقيمة وارجعوا لنا مبادئنا المستقيمة ، خذوا بيوتنا العالية وردوا لنا اخلاقنا العالية ، خذوا منازلنا الرحبة وارجعوا لنا صدورنا